﴿*وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: 19 - 22]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

من متاع الأجساد إلى عيش الأسياد

لمّا ذكر المولى الجليل - تبارك في علاه - المَطوفَ به؛ لأنَّه الغاية المقصودة؛ وصف الطّائف؛ لِما في طَوافِه مِن العظمة المشهودة؛ تصويرًا لِما هم فيه مِن المُلك، بعدَما نَجَوا منه مِن الهُلْك، ولمّا ذَكَر المخدوم والخدم؛ شَرَع في ذِكْرِ المكانِ[1]؛ تنبيهًا إلى أنَّ هناك أمورًا أعلى وأعظَمَ مِن هذا القَدْرِ المذكورِ[2]، ثمَّ أشار إلى تجمُّلهم بمحاسن الثّياب والحليِّ، وذكر في النِّهاية أنَّ هذه النِّعم جزاء عملهم[3]؛ ترغيبًا في السَّعي في الخيرات؛ لتحصيل ما جُمل في الآية مِن البركات.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّنثُورًا﴾: أصل (نثر) يدلُّ على إلقاء شيء متفرّق[4]. نثرت الشَّيء أنثره نثرًا، فانْتَثَرَ. والاسم النُّثارُ. والنُّثارُ بالضَّمّ: ما تناثر مِن الشَّيء[5]. ونثْرُ الشَّيء: نشره وتفريقه. يقال: نَثَرْتُهُ فانْتَثَرَ[6].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 148.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 752.
(3) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 296.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نثر).
(5) الجوهريُّ، الصِّحاح: (نثر).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (نثر).

والنَّثْرَة: ما يَسيلُ مِن الأنف، وقد تسمَّى الأنفُ نَثْرَةً[1]، ومنه: النَّثْرَة لنجم يقال له أَنْفُ الأسد، وطَعَنَهُ فأَنْثَرَهُ: ألْقاه على أنفه[2]، والاسْتِنْثارُ: جعل الماء في النَّثْرة[3]. والانْتِثارُ والاستِنثارُ بمعنى، وهو نثر ما في الأنف بالنَّفَس[4].

2) ﴿عَلِيَهُمْ﴾: أصل (علو) يدلُّ على ارتفاع الشَّيء فوق شيء تحته، وسُموُّه عليه[5]. العلوُّ: ضدُّ السُّفل، وهو الارتفاع. وقد علا يعلو عُلوًّا، فهو عالٍ[6]. وعَلِيَ يَعلَى علاءً، فهو عَلِيٌّ. فعَلا بالفتح في الأمكنة والأجسام أكثر، وعَلِيَ بالكسر في الشَّرف[7] وقوله تعالى: ﴿عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾؛ أي: فوقهم[8].

3) ﴿سُندُسٍ﴾: نمارق من الحَرير[9]، والسُّندس: صنف من الثياب، وهو رقيق الدّيباج[10]. وما رقَّ مِن ثياب الحرير[11].

4) ﴿خُضْرٌ﴾: خُضْرٌ جمع أخضر، والخُضْرَة: أحد الألوان بين البياض والسَّواد، وهو إلى السَّواد أقرب؛ ولهذا سُمِّي الأسود أخضر، والأخضر أسود[12]. واخضرَّ الشَّيء اخضرارًا[13]. والمخاضَرَة: المبايَعَة على الخَضِر والثِّمار قبل بلوغها[14]. وكلّ شيءٍ ناعم فهو خَضِر. يقال: أخذ الشّيءَ خِضْرًا مِضْرا؛ أي: غضًّا طَريًّا، وخُذْهُ خِضْرًا مِضْرًا؛ أي هنيئًا مريئًا[15]، و﴿خُضْرٌ﴾ جمع أخضر[16].

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (نثر).
(2) الرّاغب، المفردات: (نثر).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (نثر).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصّحاح، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (نثر).
(5) ابن فارس، المقاييس ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علو).
(6) الجوهريُّ، الصّحاح وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (علو).
(7) الجوهريُّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (علو).
(8) البغويُّ، معالم التّنزيل: 8/ 297، والخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 4/ 380.
(9) الكفويّ، الكلّيّات: (سندس).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سندس).
(11) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 4/ 380، والنّسفيُّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 3/ 581، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 179.
(12) الجوهريُّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (خضر).
(13) الجوهريُّ، الصّحاح: (خضر).
(14) الرّاغب، المفردات: (خضر).
(15) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: (خضر).
(16) النّسفيُّ، مدارك التّنزيل: 3/ 581.

5) ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: قيل: فارسيٌّ معربٌ، وتصغيره أُبَيْرِقٌ[1]. قال الزّجّاج في قوله تعالى: ﴿عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ هو الدّيباج الصّفيق الحسَن، وهو ما غلُظ من الحرير والإبْرَيْسَم[2]. وهو الدّيباج الغليظ المنسوج بخيوط الذّهب، يُلبس فوق الثّياب المُباشرة للجلد[3]، أو ما غلظ من ثياب الحرير[4].

6) ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾: أصل (حلو) يدلُّ على معانٍ منها طيب الشَّيء في ميل النَّفس إليه، وتحسين الشَّيء[5]. الحُلْوُ: نقيضُ المُرِّ. والحلو كلُّ ما في طعمه حلاوة. يقال: حلا الشَّيء يحلو حلاوة. واحلَوْلَى مثله[6]. والحُليُّ جمع الحَلْي، نحو: ثَدْيٍ وثُدِيٍّ، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: 148][7]. وقال تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾. وحِلْية السَّيف جمعها حِلَى، مثل: لِحيَة ولِحًى. ويقال تَحلَّت المرأة إذا اتَّخذت حُليًّا أو لبسته. وحَلَّيْتُها، أي ألبستها، واتَّخذته لها[8].

7) ﴿أَسَاوِرَ﴾: أصل (سور) يدلُّ على علوٍّ وارتفاع[9] وسِوار المرأة معرَّب، وأصله دستوار، واشتُقَّ منه: سَوَّرْتُ الجارية، وجارية مُسَوَّرَةٌ ومخلخلة. والجمع أَسْوِرَةٌ، وجمع الجمع أساورة[10]. والسِوار: حلي من ذهب أو فضة يُحيط بموضع من الذراع[11].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذا السّياق القرآنيِّ المبارك يصف المولى ﷻ خدم أهل الجنَّة بعد أن وصف شرابهم؛ حيث يدور على هؤلاء الأبرار في الجنَّة غلمان لخدمتهم دائمون لا يتغيَّرون، إذا رأيتهم أيُّها المعتبر الرّائي ظننتهم - لحسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم - اللؤلؤ

(1) الجوهري، منتخب من صحاح الجوهري: (استبرق).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (استبرق).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 313.
(4) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 3/ 581، والخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 4/ 380، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 179.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حلو).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (حلو).
(7) الرّاغب، المفردات: (حلي).
(8) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح: (حلو).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سور).
(10) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (سور).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 312.

المفرَّق المضيء، وإذا أبصرت كذلك أيَّ مكان آخر في الجنَّة ممّا قد أعطي لهؤلاء الأبرار من مظاهر الأنس والسُّرور رأيت نعيمًا لا يدركه الوصف، وملكًا واسعًا عظيمًا لا غاية له، كما تعلو أبدانَ هؤلاء الأبرار في الجنَّة ثياب فاخرة خضراء من الحرير الرَّقيق، والحرير الغليظ، وأُلبِسوا كذلك في الجنَّة أساور فضّيَّة للزّينة والتَّحلّي، وسقاهم ربُّهُم فوق ذلك النَّعيم شرابًا بالغًا نهاية الطُّهر لا رِجْسَ فيه ولا دَنَسَ، ثمَّ يُقالُ لهؤلاء الأبرار: إنَّ هذا الَّذي أعطيناكم من الكرامة كان لكم ثوابًا على أعمالكم الصّالحة، وكان عملكم في الدُّنيا مقبولًا عند الله تعالى، ومصحوبًا كذلك بالشُّكر والثَّناء[1].

لأهل الجنَّة خدم مِـن الغِلمان مخلَّدون، وثياب خضر يلبسون، ونعيم دائم هم فيه باقون

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) ودلالتها في ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ عاطفة[2]، عطفت جملتَها على جملة ﴿وَيُسْقَوْنَ﴾[3]. وممّا حسَّن الوصل بين الجملتَيْن كونُهما فعليَّتَيْن، مضارعتَيْن، تصفان نعيم أهل الجنَّة. ومِن بديع المناسبة بينهما أنَّه لمّا ذُكِر المطوف به المسقيُّ لذَّةً ونعيمًا في قوله سبحانه ﴿وَيُسْقَوْنَ﴾؛ إذ هو الغاية المقصودة - ناسبَ أنْ يوصَف الطّائفُ لِما في طوافه مِن العَظَمة المشهودة؛ فلذا ذُكِر في هذه الآية أوصاف السُّقاة الذين يسقون الأبرارَ ذلك الشَّرابَ، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾؛ تصويرًا لِما هم فيه مِن المُلك بعد ما نجوا منه مِن الهُلك[4].

ذكـــر وصـــف الطّائف تصويرًا لما فيه المطوف به مِن عظَمَة المُلك بعد النَّجاة مِن الهُلك

دلالة التَّعبير بالمضارع، والفرقُ بين هذا الطَّواف وطواف السُّقاة:

عُبِّر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾؛ للدَّلالة على

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 564 - 572، ومجمع الملك فهد، التفسير الميسر، ص: 1/ 579.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 323.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 189.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 147، والمراغيُّ، تفسير القرآن: 29/ 170.

الأبرار في الجنَّة مخدومون، ونعيمهم فيها متجدِّدٌ غيرُ ممنون

تجدُّد هذا الطَّواف وتكرُّره مرَّة بعد مرَّة، فشهوة أهل الجنَّة لا تنقضي، ولذَّتهم فيها لا تنتهي، ونعيمهم فيها لا ينفد، أمّا عن الفرق بين هذا الطَّواف والطَّواف المذكور آنفًا في قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾، فهو أنَّ الطَّواف الأوَّل هو طواف السَّقي، حيث يدور عليهم السُّقاة بالآنية المترَعة خمرًا. أمّا هذا الطَّواف المشار إليه بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، "فهذا طوافٌ لأداء الخدمة"[1]، يقوم به "نوعٌ آخَر مِن الخدم، يطوفون على هؤلاء الأبرار لخدمتهم"[2]، وهذا الأخير يدخل فيه السَّقي وغيره؛ ولذا فُصِل بينهما، وأوثِر في الأوَّل البناء للمفعول؛ لأنَّ الاهتمام فيه كان بالمطوف به: وعاءً وشرابًا وشاربًا منعَّمًا، وأوثِر في الثّاني البناء للفاعل؛ لأنَّ الاهتمام فيه كان بالطّائف نفسِه توسُّلًا بوصفه لبيان عظَمَة النِّعمة التي فيها المطوف به[3].

معنى (عَلَى) ودلالتها:

ينحني الخدم لأسيادهم؛ تلبيةً لأمرهم، وتكرمةً لهم

الأصل في معنى (على) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلُّ على ذلك، فهي من العُلوّ[4] و(على) في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يصوِّر اتّكاءَ الأبرار على أرائكهم الفاخرة، وهؤلاء الولدان يدورون عليهم بما أراده الأبرار مِن صنوف الطَّعام والشَّراب، يقفون عندهم، وينحنون لهم بالآنية تكرمةً لهم، فلا يحتاج الأبرار إلى النُّهوض مِن جلوس، ولا إلى الانحناء مِن عُلوٍّ، بل هم في مكانهم وعلى هيئتهم، والخدم ينحنون لهم، وهذا هو المعهود في تَرَف الملوك وأهل البذخ؛ ولذا عُبِّر هنا بـ﴿عَلَيْهِمْ﴾.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 397.
(2) طنطاويٌّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 224.
(3) الإسكافيّ، درَّة التَّنزيل وغُرَّة التَّأويل: 1/ 1315، والكرمانيُّ، أسرار التَّكرار، ص: 244.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 497، والسّامِرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 47.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعل ﴿وِلْدَانٌ﴾:

في التَّقديم إشعار بالاهتمام، ودلالة على الإكرام

أوثِر تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعل ﴿وِلْدَانٌ﴾ لبيان الاهتمام بالمقدَّم، وهم الأبرار؛ إذ الضَّمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لهم، ومقام الإنعام يقتضي الإكرام المتوسَّل إليه هاهنا بالتَّقديم. كما أنَّ في هذا النَّظم تشويقًا للمؤخَّر ليقع مِن النَّفس موقعه الذي أُريد له.

بلاغة التعبير بالمجاز في التَّعبير بالوِلدان:

خُصَّ الأبرار بخدمتهم، تكميلًا لنعيمهم ومَسَرَّتهم

﴿وِلْدَانٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾: جمع وليد. وأصلُ وليد: (فَعيل) بمعنى (مفعول). ويُطلَق الوليدُ على الصَّبيّ مجازًا مشهورًا بعلاقة ما كان؛ لقصد تقريب عهده بالولادة. وأحسَن مَن يُتَّخذ للخدمة الولدانُ؛ لأنَّهم أخفُّ حركةً وأسرَعُ مشيًا ولأنَّ المخدوم لا يتحرَّج إذا أمرهم أو نهاهم"[1].

سرّ وصف الوِلْدان بصيغة اسم المفعول المجموع: ﴿مُخَلَّدُونَ﴾:

خُلِقوا مِن الجنَّة للبقاء مُـدَدا، لا يتغيَّرون ولا يكبَرون أبدا

وصف الله – جلَّ ثناؤه – خَدَمَ الأبرار في الجنَّة بقوله: ﴿وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾، والمخلَّدون: الذين لا يتحوَّلون عن حالهم تلك أبدًا، ولا يتأثَّرون بمرور الدُّهور والأزمان. وهو مِن الخُلْد؛ أي: الثَّبات وعدم التَّحوُّل والانتقال مِن مكان إلى مكان. يُقال: أخلَدَ فلانٌ في مكانه؛ أي: لَزِمَه، وأخلَدَ إلى الرّاحة؛ أي: أقام في ظلِّها. ومنه: جنَّة الخُلْد؛ أي: الخُلودُ والدَّوام فيها"[2] وفي المراد به هنا ثلاثة أقاويل: **أحدُها:** مخلَّدون لا يَموتون. **والثّاني:** صِغارٌ لا يكبَرون، وشبابٌ لا يهرَمون، فهم لا يتغيَّرون عن تلك السِّنّ. **والثّالث:** مُسَوَّرون مُقَرَّطون، فالخلد: القرط، وهو ضربٌ مِن الحُليّ[3] وأيًّا ما كان "فالمراد به دوامُ كونِهم على تلك الصّورة التي لا يُراد في الخدم أبلغُ منها، وذلك يتضمَّن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 397.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1370.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 110، والماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 171، والقاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 377.

دوامَ حياتِهم وحُسنِهم ومواظبتِهم على الخدمة الحسنة"[1] ووُصِفوا بأنَّهم ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ للاحتراس ممّا قد يوهِمُه اشتقاقُ (ولدان) مِن أنَّهم يشبّون ويكتَهِلون؛ أي: لا تتغيَّر صِفاتُهم، فهم ولدانٌ دومًا، وإلّا فإنَّ خلود الذَّوات في الجنَّة معلومٌ، فما كان ذِكرُه إلّا لأنَّه تخليدٌ خاصٌّ"[2]. "وهذا مِن تمام لذَّة أهل الجنَّة، أن يكون خُدّامَهم الولدانُ المخلَّدونَ، الذين تَسُرُّ رؤيتُهم، ويدخلون على مساكنهم، آمنين مِن تَبِعَتِهم، ويأتونهم بما يدَّعون وتطلُبُه نفوسُهم"[3].

أمّا التَّعبير باسم المفعول - دون اسم الفاعل (خالدون) - فلتضمُّنه الإشارةَ إلى أنَّ ثَمَّة مخلِّدًا خلَّدهم، وهو الله - جلَّ ثناؤه - وهذا يدلُّ على تمام إكرامه سبحانه لأهل الجنَّة إذ إنَّه قد أعدَّ لهم هذا النَّعيم إعدادًا خاصًّا بهم مغايرًا للعادة؛ لأنَّ العادة حاكمة بأنَّ الولدان يشبّون ويهرمون، أمّا هؤلاء فقد أعدَّهم الله إعدادًا خاصًّا بحيث يثبتون على هذه الصِّفة، والتَّخليد ليس ذاتيًّا فيهم بل بتقدير الله سبحانه فمخلَّدون أقوى مِن حيث كونها تستحضر الفاعل المنعم الجليل، وهو بمثابة التَّعليل لخلودهم وعدم هرمهم.

بلاغة التَّعبير بالتَّشبيه:

قوله ﷻ: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾؛ "أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السّادة، وكثرتِهم، وصباحَةِ وجوهِهم، وحُسنِ ألوانِهم وثيابِهم وحُليِّهم، حسبتَهم لؤلؤًا منثورًا. ولا يكون في التَّشبيه أحسن مِن هذا، ولا في المنظر أحسن مِن اللُّؤلؤ المنثور على المكان الحَسَن"[4] وفي كيفيَّة هذا التَّشبيه وجوهٌ:

لا يكون في التَّشبيه أحسن مِن اللُّؤلؤ المنثور على المكان الحَسَن

أحدُها: شُبِّهوا في حُسنِهم وصفاءِ ألوانهم وانتشارهم في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 753.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 397.
(3) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 902.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 292.

مَجالِسهم ومنازلهم عند اشتغالهم بأنواع الخدمة باللُّؤلؤ المنثور، ولو كان صَفًّا لشُبِّهوا باللُّؤلؤ المنظوم، ألا ترى أنَّه تعالى قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ فإذا كانوا يطوفون كانوا متناثِرينَ. **وثانيها**: أنَّهم شُبِّهوا باللُّؤلؤ الرَّطب إذا انتثر مِن صَدَفِه؛ لأنَّه أحسنُ وأكثرُ ماءً. **وثالثُها**: أنَّهم شُبِّهوا باللُّؤلؤ في وضاءته وبريقه ولمعانه؛ لأنَّ اللُّؤلؤ إذا كان متفرِّقًا يكون أحسنَ في المنظر لوُقوعِ شُعاع بعضِه على البعض، فيكون مخالفًا للمجتمِع منه[1].

فعلى الأوَّل يكون هذا التَّشبيه مِن التَّشبيهات المركَّبة، ووجهُ الشَّبه فيه متعدِّدٌ، وعلى الثّاني يكون مِن تشبيه المفرد بالمفرد؛ لأنَّ الانبثاث على هذا الوجه غير ملحوظ ولا منظورٍ إليه. ويجوز أن يكون مركَّبًا لتَصوُّر النَّثر مِن الصَّدَف مع تَصوُّر وجه الشَّبه: الطَّراوة والرَّونق[2].

دلالة التَّعبير بالظَّرف: ﴿إِذَا﴾:

عُبِّر بالظَّرف المتضمِّن معنى الشَّرط ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ لإفادة حتميَّة التَّحقُّق والوقوع[3]؛ أي: لا يقع بصرُك على هؤلاء الوِلدان - متى أبصرتَهم - إلّا حسبتَهم لؤلؤًا منثورًا.

جـزاء الأبـرار حتميُّ الوقوع، وأجـرهـم في الـجـنَّـة غير مقطوع

الغرض من التَّعبير بالماضي والمقامُ للمضارع: ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾، وتعيين بالمخاطَب:

عُبِّر بالماضي عن المستقبَل في قول الله تعالى: ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ لإفادة تحقُّق وقوع الفعل، فكأنَّه لتأكُّد حدوثه وحتميَّة وقوعه بمنزلة الماضي الذي حصل وانقضى، فالمتكلِّم هو ربُّ العالمين - جلَّ ثناؤه - الذي لا يعجزه شيء، وإذا أراد شيئًا قال له كن فيكون.

إذا وعـد المليك الواسع، فوعده متحقِّق واقع

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 753.
(2) الطِّيبيُّ، حاشية على تفسير الكشّاف: 16/ 203، والقونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 490، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 178.
(3) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 218.

أمّا عن تعيين المخاطَب بالكلام فثَمَّ مسلكان[1]: أحدهما: أن يكون المرادُ به النَّبيَّ ﷺ فهو أعلى الخلْقِ شأنًا، وأثبت النّاس نظرًا، وأوَّل مَن يدخل الجنَّة. والآخَر: أن يراد به كلُّ مَن يصلح للخِطاب ممَّن شأنه الرُّؤية، كائنًا مَن كان في أيِّ حالة رآهم فيها، فهو خطابٌ "لكلِّ مستمِع لهذه الآيات، أو تالٍ لها، وفي هذا ما يبعث أشواقَه إلى الجنَّة، ويشدُّ عزمَه على العمل لها، ليكون مِن أهلها، المنعَّمين بنعيمها، لا أن يكون مِن المشاهِدين لهذا النَّعيم مِن بعيد، كما يشهد أصحابُ النّار أصحابَ الجنَّة!!"[2]. فعلى الأوَّلِ الضَّميرُ المستترُ في ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ حقيقةٌ، وعلى الثّاني استعارة أو مجاز مرسَل. وكذا الكلامُ في ضمير ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾[3].

دلالة التَّعبير بأداة التَّشبيه: ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾:

"تركيب ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ﴾ مفيدٌ للتَّشبيه المراد به التَّشابُه"[4]، وهو "تشبيهٌ مأخوذٌ مِن معنى ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾، وهو تشبيهٌ بديعٌ، فقَدْ شبَّه الولدانَ باللُّؤلؤ المنثور، فهو قِسْم مِن أقسام التَّشبيه جاءتْ فيه الأداة فِعلًا مِن أفعال الظَّنّ"[5]، "وكأنَّه عبَّر بالحِسبان إشارةً إلى أنَّ ذلك مطلَق تجويز لا مع ترجيح"[6] فإنَّه على طريق التَّشبيه المقتضي لقُرب شَبَهِهم باللُّؤلؤ أنْ يُحْسَبوا لؤلؤًا"[7].

كـادوا مِـن فرط الـجـمـال أنْ يُحسَبوا لؤلؤًا منثورا

سر التَّعبير بالمشبَّه به منكَّرًا موصوفًا: ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾:

في قول الله تعالى: ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ جاء المشبَّه به نكرةً مقيَّدة بالوصف ﴿مَّنثُورًا﴾؛ للدَّلالة على شيئَيْن:

اللُّؤلؤ المنثور أبهَى مَنظرًا، وأبهَر موقعًا

(1) ابن عادل، اللُّباب: 20/ 38، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 147 - 148، والقنَّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 473.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1371.
(3) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 489 - 490.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 397.
(5) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 359.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 148.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 179.

أحدُهما: التَّعظيم والتَّفخيم، وذلك مُستَفادٌ مِن التَّنكير. والآخَر: الدَّلالة على كثرتهم، وانتشارهم في الخِدمَة، وإسراعهم فيها، وذلك مستفادٌ مِن التَّقييد بالوصف ﴿مَّنثُورًا﴾ "وإنَّما شبَّههم بالمنثور؛ لأنَّهم سراعٌ في الخِدمة، بخلاف الحور العين إذْ شبَّهَهُنَّ باللُّؤلؤ المكنون المخزون؛ لأنَّهنَّ لا يُمتَهَنَّ بالخِدمة"[1]، وأيضًا "لانتشارهم في الخدمة، فلو كانوا صفًّا لشُبِّهوا باللُّؤلؤ المنظوم، ألا ترَى أنَّ الله - ﷻ قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، فإذا كانوا يطوفون كانوا نَثرًا"[2]، "واللُّؤلؤ إذا نُثِر مِن الخيْط على البِساط، كان أحسنَ مِنه منظومًا"[3]. وفيه دليلٌ أيضًا على كثرتهم، ودليلٌ على تفرُّقهم وانتشارِهم في الخِدمة وشَرَفِهم وحُسنِهم كاللُّؤلؤ إذا نُثِر[4]، فهو تشبيهٌ قُيِّد فيه المشبَّه بحالٍ خاصٍّ؛ لأنَّهم شُبِّهوا به في حُسن المنظَر مع التَّفرُّق[5]، فهم "كالمنثور مِن الزَّهر في الرَّوض، تتنقَّل العَيْن في محاسنه مِن زهرةٍ إلى زهرة، على خلاف ما لو ضُمَّ بعضُه إلى بعضٍ لأخذَتْه العَيْنُ كلَّه بنظرة واحدة!!"[6].

معنى (الواو) ودلالتها في ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ ودلالة التعبير بالماضي والمقام للمستقبل:

الواو عاطفة، وجملة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ معطوفةٌ بالواو على مثيلتها في الآية الكريمة السّابقة[7] وممّا حسَّن الوصل بينهما كونُهما فِعليَّتَيْن، ولا يضرُّ مجيء فعل الأولى مضارعًا والثّانية ماضيًا؛ لأنَّه في معنى المضارع، ومِن بديع المناسبة بين الجُملتَيْن أنَّه "لمّا فصَّل

في الجنَّة مِن آثار رحمة الله الجليل ما لا يحصيه عدٌّ ولا تفصيل

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 144.
(2) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 50.
(3) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 297، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 380.
(4) أبو حفص النسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 151، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 148.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 397.
(6) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1370.
(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 323، وبهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 282.

سبحانه بعضَ ما في الجنَّة مِن وجوه النِّعم وصنوف العزَّة والإكرام - أتبعه بما يدلُّ على أنَّ ما فيها مِن آثار الله تعالى ورحمته ليس ممّا يحصيه العدُّ والتَّفصيل، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾؛ أي: في الجنَّة"[1] ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

نكتة التَّعبير بـ(إذا):

(إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ "ظرفيَّة شرطيَّة تفيد حتميَّة الحدوث"[2]، "فالتَّقييد بـ(إذا) أفاد معنى الشَّرطيَّة، فدلَّ على أنَّ رؤية النَّعيم لا تتخلَّف عن بصر المبصِر هنالك، فأفاد معنى: لا ترى إلّا نعيمًا؛ أي: بخلاف ما يُرَى في جهات الدُّنيا"[3].

ليس في الجنَّة إلّا النَّعيم، وجزاء الأبرار فيها عظيم

دلالة التَّعبير بالماضي والمقام للمستقبل: ﴿رَأَيْتَ﴾:

الماضي ﴿رَأَيْتَ﴾ في معنى المستقبَل، وهذا مستفاد مِن دلالة (إذا)، فإنَّها "ظرف لما يُستقبَل مِن الزَّمان متضمِّنة معنى الشَّرط"[4]. والمعنى: أينما يقعْ بصرُك في الجنَّة يقعْ على نعيم عظيم لا يبلغه وصف، وملك كبير لا يقطعه حدٌّ، وفي التَّعبير بالماضي إشعار بتحقُّق الوقوع؛ أي: أنتَ راءٍ يقينًا نعيمًا وملكًا كبيرًا، ليس في ذلك شكٌّ.

يتقلَّب بصر النّاظر في الجنَّة بين صنوف النَّعيم، وآثار الفضل العظيم

تقدير مفعول ﴿رَأَيْتَ﴾:

الفعل ﴿رَأَيْتَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ ليس له مفعول ظاهر ولا مقدَّر؛ إذ إنَّه منزَّلٌ منزلة اللّازم ليفيد العمومَ في المقام الخطابيّ، فالمعنى: أنَّ بَصَرَ الرّائي أينما وقع في الجنَّة لم يتعلَّق إدراكُه إلّا بنعيم كثيرٍ لا توصَف عظمتُه، ومُلْك كبير لا يُعرَف كنهُه[5].

أينما وقع البصر في الجنَّة لم يتعلَّق إدراكُه إلّا بنعيمٍ كثير، ومُلكٍ كبير

(1) محيي شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 443.
(2) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 219.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 398.
(4) المراديُّ، الجنَى الدّاني، ص: 367.
(5) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 673، والنَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 416، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 148.

"و﴿ثَمَّ﴾ ظرفٌ، العاملُ فيه ﴿رَأَيْتَ﴾"[1]؛ "أي: إذا نظرت في الجنَّة، ورميت بطرفك ما أوتي الأبرارُ ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾"[2]. أمّا ﴿رَأَيْتَ﴾ الثّاني فجواب ﴿وَإِذَا﴾؛ أي: إذا فتحت عينك ترى نعيمًا[3].

نكتة التَّقييد بالظَّرف ﴿ثَمَّ﴾:

(ثَمَّ) ظرف مكان مختصٌّ بالبُعد[4]؛ أي هناك في الجنَّة، والعامل في ﴿ثَمَّ﴾ معنى ﴿رَأَيْتَ﴾؛ أي: وإذا رأيتَ ببصرِك ثَمَّ"[5] وهو منصوب على الظَّرفيَّة. ومفعول الرُّؤية غير مذكور؛ لأنَّ القصد: وإذا صدرَتْ منك أيُّها المخاطب رؤيةٌ إلى هناك؛ أي: إلى الجنَّة ونعيمِها ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ لا يقادر قدرُه، ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ أي: واسعًا لا غاية له"[6].

لا مكان يشبه الجنَّة ولا يدانيها، وهي بديعة بكلّ ما فيها

ولمّا كان هذا لا يحصل إلّا في الجنَّة، فقد قُيّدت الرُّؤية بالظَّرف ﴿ثَمَّ﴾؛ ذلك أنَّ الرّائي إذا أجال بصره في الدُّنيا فإنَّ عينه ستقع على جميل فيها وقبيح، ومهما زاد اتّساع المُلك فإنَّه محدود، ومهما بلغ النَّعيم أقصى درجات الرَّفاه فإنَّ له منغِّصًا ولا بدَّ، أمّا في الجنَّة فإنَّ أدنى أهلها منزلة مَن يكون له مثل مَلِك مِن ملوك الدُّنيا، وعشرةُ أمثالِه، وما تشتهيه نفسُه وتلذُّ عينُه، كما ورد بالحديث الصَّحيح، وإنَّ النَّعيم فيها أبديٌّ لا منغِّص له، وعليه فإنَّ التَّقييد بالظَّرف ﴿ثَمَّ﴾ كان أشبه بالتَّخصيص، فلا مكان يشبه الجنَّة، ولا يدانيها في صفتها!.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 365.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 377.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 398.
(4) الجمل، حاشية على الجلالين: 8/ 194.
(5) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 144.
(6) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 224.

نكتة تكرار ﴿رَأَيْتَ﴾:

في قوله جلَّ ثناؤه ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾ "كُرِّر ذِكرُ الرُّؤية مبالغةً"[1]. "وفى مجيء نَظْم الآية في صورة خطابٍ بعثٌ لأشواق المخاطَب، ودعوةٌ له إلى مشاهَدة هذه الأحوال، ثُمَّ العمل على أخذ مكانه مع هؤلاء الذين ينظر إليهم"[2].

النَّظر في الجنَّة نعمة بذاته، إذ يتقلَّب في صنوف النَّعيم وملذّاته

بلاغة التَّعبير بالتَّشبيه البليغ: ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ يصحُّ توجيهان: **الأوَّل:** التَّشبيه البليغ؛ "أي: مِثل أحوال المُلك الكبير المتنعِّم ربُّه. وفائدة هذا التَّشبيه تقريب المشبَّه لمدارك العقول"[3]، فإنَّ الواحد من أهل الجنَّة "عنده مِن القصور والمساكن والغرف المزيَّنة المزخرفة، ما لا يدركه الوصف، ولديه مِن البساتين الزّاهرة، والثِّمار الدّانية، والفواكه اللَّذيذة، والأنهار الجارية، والرِّياض المعجبة، والطُّيور المطربة – ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النُّفوس. وعنده مِن الزَّوجات اللّاتي هُنَّ في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظّاهر والباطن، الخيرات الحِسان، ما يملأ القلب سرورًا، ولذَّة وحبورًا، وحوله مِن الوِلدان المخلَّدين، والخدم المؤبَّدين، ما به تحصل الرّاحة والطُّمأنينة، وتتمُّ لذَّة العيش، وتكمل الغبطة. ثُمَّ علاوة ذلك وأعظمه الفوزُ برؤية الرَّبِّ الرَّحيم، وسماع خطابه، ولذَّة قُربِه، والابتهاج برضاه، والخلود الدّائم، وتزايد ما هُم فيه مِن النَّعيم كلَّ وقت وحين، فسبحان المَلِك المالك، الحقِّ المبين، الذي لا تنفد خزائنُه، ولا يقلُّ خيرُه، فكما لا نهاية لأوصافه فلا نهاية لبرِّه وإحسانه"[4].

في الجنَّة ما لا يدركه الوصف ولا الخيال، فسبحان مَن جعلها رمزًا للجَمال

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 413.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1370.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 398.
(4) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 902.

والثّاني: الاستعارة، "فالكبير مستعارٌ للعظيم، وهو زائد على النَّعيم بما فيه مِن رِفعةٍ وتذليل للمصاعب"[1]. أو يكون الكبير "مستعارًا مِن عِظَم الحجم لسعة الفضاء والمسافة، والعلاقة مطلَق السَّعة"[2]. والتَّوجيهان متقاربان متكاملان.

الغرض من تنكير ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾:

أوثر التَّنكير في قوله تعالى: ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ لإفادة التَّعظيم، والمعنى: إذا نظرت في الجنَّة رأيتَ ﴿نَعِيمًا﴾ عظيمًا لا يوصَف عِظَمُه، ولا يحاكيه نعيم، فليس فيه كدر بوجه من الوجوه، ولا يقدر على وصفه واصف[3]، ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ يعني: "عظيمَ القَدْر لا تحيط به عبارة، وهو يشمل المحسوس والمعقول"[4]، "فلا يقدر واصفٌ يَصِف حُسنَه، ولا طيبه"[5]، "ولا يقادَر قدرُه"[6]، "ولم يخطر على بال ممّا هو فيه مِن السَّعة وكثرة الموجود والعظَمَة"[7] "ومِن المُلك الكبير: تسليمُ الملائكة عليهم، ولبس التِّيجان على رؤوسهم كما تكون على رؤوس الملوك. وأعظمهم منزلة مَن ينظر إلى وجه ربِّه كلَّ يوم"[8].

ما أعظَمَ نعيمَ أهلِ الجنَّة وجزائهم! وما أشدَّ اتِّساع مُلكِهم

سرّ تقييد المُلك بالصِّفة: ﴿كَبِيرًا﴾:

قُيِّد المُلك بالكِبَر في قوله تعالى: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ لأنَّ النَّعيم قد يكون في حالة وُسطَى، أو يتخلله كدَر، أو يُخشَى زوالُه، فجاء القيد مزيلًا لهذا الوهم[9] وممّا أفاده هذا القيد أيضًا تعظيم الموصوف،

لا يتخلَّل نعيمَ الجنَّة كدَر، ولا يخطر على قلب بشر

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 398.
(2) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 491، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 290.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 200، والخازن، لباب التَّأويل: 4/ 380، والشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 457.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 178.
(5) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 51.
(6) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 424.
(7) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 149.
(8) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 4/ 277.
(9) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 148.

فقوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ "أي: عظيمًا واسعًا لا يريدون شيئًا إلّا قدَروا عليه، ولا يدخل عليهم مَلَك إلَّا باستئذان"[1]، "وأنَّ أدناهم منزلةً ينظر إلى مُلكه في مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه. لا زوال له"[2]، "وذلك أنَّ النِّعمة إذا كانت في معرض الزَّوال لا يتلذَّذ به صاحبُه، ولا يستبشر به الاستبشار التّامَّ"[3]، ثمَّ "إنَّ اللَّذاتِ الدُّنيويَّةَ محصورةٌ في أمور ثلاثة: قضاء الشَّهوة، وإمضاء الغضب، واللَّذة الخياليَّة التي يُعَبَّر عنها بحُبِّ المال والجاه، وكلُّ ذلك مستحقَرٌ؛ فإنَّ الحيوانات الخسيسة قد تشارك الإنسان في واحد منها، فالمُلك الكبير الذي ذكره الله هاهنا لا بدَّ وأن يكون مغايرًا لتلك اللَّذّات الحقيرة"[4] "فالمراد بالمُلك الكبير هنا: السُّلطان العظيم الذي هو مظهر مِن مظاهر المُلك، وسِمةٌ مِن سِماته. وأيُّ سلطان أعظم مِن سلطان أهل الجنَّة، حيث تمضي إرادتُهم في كلِّ شيء، وتَنفذُ مشيئتُهم في كلِّ شيء؟! إنَّ خطرات النُّفوس، وهمسات الخواطر - أيًّا كانت هذه الخطرات، وأيًّا كانت هذه الهمسات - تتمثَّل لهم واقعًا حاضرًا بين أيديهم، قبل أن يكتمل ميلاد الخطرة، أو تتشكَّل صورةُ الهمسة!! فمَن في هذه الدُّنيا بلغ مِن نفوذ سلطانه معشار هذا السُّلطان؟"[5].

بلاغة التَّرقِّي في الآية:

في قوله تعالى: ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ إشارة إلى أنَّ وراء هذا الفضل نعيمًا كثيرًا لا توصَفُ كثرته وجلاله[6]، فإنَّه "لمّا ذكر نعيم أهل الجنَّة بما تقدَّم ذكر أنَّ هناك أمورًا أعلى وأعظم مِن ذلك

في الجنَّة ما هو أعظم مِن القدر المذكور، فضلًا مِن المنعِم الشَّكور

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 380.
(2) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 297.
(3) الطِّيبيُّ، حاشية على الكشّاف: 16/ 204.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 753.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1370 - 1371.
(6) أبو حفص النسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 151.

فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ أي: وإذا نظرت في الجنَّة رأيت نعيمًا عظيمًا، ومُلكًا كبيرًا لا يحيط به الوصف"[1] فالآية مِن باب التَّرقِّي والتَّعميم؛ يعني: أنَّ هناك أمورًا أُخرى أعلى وأعظم مِن القَدْر المذكور"[2]؛ فلذلك "أجمل نعيمَهم؛ لأنَّه أعلى وأعظم ممّا سبق، ولأنَّه ممّا لا يُحصَر ولا يَخطُر ببال أحد ما دام في الدُّنيا"[3]، "فهؤلاء الأبرار يَطعَمون أطيب المطاعم، ويَشرَبون ألذَّ وأمرأ المشارب، وهُم في حال اتِّكاء واستروح، وبين أيديهم اللُّؤلؤ المنثور مِن الغِلمان يقومون على خدمتهم، وإذ يفيض عليهم مِن هذا النَّعيم ما تشرق به وجوهُهم مِن رضا ورضوان - تراهم وقد ألبسوا أفخر الثِّياب، وحُلّوا بأثمن الحُليّ وأكرمها.. فهذا ممّا يتمُّ به النَّعيم، وتكمل به المسرّات"[4].

توجيه القراءات القرآنيَّة المتواترة لقوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ وأثره في المعنى:

قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة: ﴿عَٰلِيهِمْ﴾ ساكنةَ الياءِ مكسورةَ الهاء، فيكون في موضع رفع بالابتداء، وخبرُه: ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾. وقرأ الآخَرون بفتح الياء وضَمّ الهاء ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ على الصِّفة؛ أي: فوقهم، وهو نصب على الظَّرف[5].

ثراء الدَّلالات بتعدُّد التَّأويلات، وتنوُّع التَّوجيهات

والقراءة بسكون الياء لأنه مرفوع بالابتداء، ويكون خبره ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾. ويكون المعنى: وثيابُ سُندس تعلوهم أبدانهم، ومَن نَصَبَ فهو على الظّرْف، كما تقول: فوقَهُم ثياب، أو على الحال وهو الأظهر، مِن شيئين: أحدُهما: من الأبرار، والمعنى يطوف على الأبرار ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ عاليًا الأبْرارَ ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾؛ لأنَّه وقدْ

(1) المراغيُّ، تفسير القرآن: 29/ 170.
(2) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 274.
(3) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 298.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1371 - 1372.
(5) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 297، وابن الجزري، النشر: 2/ 396.

وصف أحوالَهم في الجنَّة، فيكون المعنى يطوف عليهم في هذه الحال هؤلاء. والآخَر: أن يكون حالًا مِن الوِلدان. المعنى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ في حال علوِّ الثِّياب إيّاهم. فالنَّصب على هذا بَيِّن[1]، وكون الحال للأبرار أظهر "لأنَّ الضَّمائر الآتية بعد ذلك تدلُّ على أنَّها للمطوف عليهم مِن قوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾، ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾، و﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾، وفكُّ الضَّمائر بجَعْلِ هذا كذا، وذاك كذا، مع عدم الاحتياج والاضطرار إلى ذلك - لا يجوز"[2]. فالضَّمير في ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ "للأبرار المطوف عليهم؛ لأنَّ المقام مقام تعداد نعيمهم وكرامتهم، فالمناسب أن تكون الثِّياب الموصوفة لهم، لا للوِلدان الطّائفين"[3].

بيان موقع ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ﴾ على القراءتين ممّا قبلها ودلالته:

قراءةُ نافعٍ وحمزةَ وأبي جعفرٍ: ﴿عَٰلِيهِمْ﴾ بسكون الياء تُؤوَّل "على أنَّ الكلام جملةٌ مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا لجملة: ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾، فـ﴿عَٰلِيهِمْ﴾ مبتدأ، و﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ فاعلُه، سدَّ مَسَدَّ الخبر، وقد عَمِل في فاعله وإنْ لم يكن معتمدًا على نفي أو استفهام أو وصف، وهي لُغةُ (خَبيرٌ بَنو لهَبٍ) وتكون الجملة في موضع البيان لجملة: ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾. وقراءةُ بقيَّةِ العشَرة ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ بفتح التَّحتيَّة على أنَّه حالٌ مفرَدٌ لـ(الأبرار)؛ أي: تلك حالة أهل المُلك الكبير"[4].

تلك حالة أهل المُلك الكبير رفاهٌ، ونعيم، وثوبٌ وثير

فائدة التَّعبير بـ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾:

أوثر التَّعبير بالعُلوّ للدَّلالة على تعدُّد أصناف الثِّياب التي يلبسها الأبرار؛ إشارةً إلى تنعُّمهم، وتنبيهًا على أنَّ لهم عدَّةً مِن الثِّياب، ولكنَّ الذي يعلوها هي هذه، فتكون أفضلَها.

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 262.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 366 - 367.
(3) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 275.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 398.

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾:

ثياب مِن الحرير نُسِجت، وللأبرار خُلِقت

قوله: ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾؛ يعني: ثيابُ ديباجٍ رقيقٍ حَسَنٍ، والسُّندس: هو ما رقَّ مِن الدِّيباج[1]. وإضافة الثِّياب إلى السُّندس كإضافة الخاتَم إلى الفِضَّة[2]، فهي إضافة بيانيَّة مثل: خاتم ذهبٍ، وثوب خزٍّ؛ أي: منه[3]؛ أي أنَّها على معنى (مِن)[4].

توجيه القراءات القرآنيَّة المتواترة لقوله تعالى: ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وأثره في المعنى:

وجازة المبنى آيةٌ في جلال المعنى

اختلف القُرّاء في قراءة هذيْن الحرفيْن، فقرأ أبو عمرو وابن عامر وأبوجعفر ويعقوب برفع ﴿خُضْرٌ﴾، وخفض ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾. وقرأ ابنُ كثير وشعبة بخفض ﴿خُضْرٍ﴾، ورفع ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾. وقرأ نافعٌ وحفص برفعهما ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾. وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بخفضهما: ﴿خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[5]. و"حاصل القراءات في ذلك أربعُ مراتب: الأولى: رفعُهما. الثّانية: خفضُهما. الثّالثة: رفعُ الأوَّل، وخفض الثّاني. الرّابعة: عكسُ ذلك"[6].

فمَن رَفَعَهما فقد قال: ﴿خُضْرٌ﴾ نعتُ الثّياب، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ عطفٌ على ﴿خُضْرٌ﴾، ومَن خَفَضَهما فقد قال: ﴿خُضْرٍ﴾ نعتٌ لـ﴿سُندُسٍ﴾، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ عطفٌ على ﴿سُندُسٍ﴾، ومَن رَفَعَ ﴿خُضْرٌ﴾ فقد جَعَلَه نعتًا لـ﴿ثِيَابُ﴾، ثمَّ خفَضَ ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ عطفًا على ﴿سُندُسٍ﴾، ومَن خَفَضَ ﴿خُضْرٍ﴾ فقد جَعَلَه نعتًا لـ﴿سُندُسٍ﴾ ثمَّ رَفَعَ ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ عطفًا على ﴿ثِيَابُ﴾[7].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 112.
(2) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 275.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 398.
(4) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 4/ 277، والجمل، حاشية على الجلالين: 8/ 195، والقنَّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 475.
(5) ابن الجزري، النشر: 2/ 396.
(6) الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 457 - 458.
(7) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 153.

والمعنى على القراءة الأولى: عاليهم ثيابُ سندسٍ، وثيابُ إستبرقٍ، على حذف المضاف.

والمعنى على القراءة الثّانية: عاليهم ثيابٌ مِن سُندُسٍ، وثيابٌ مِن إستبرقٍ.

والمعنى على القراءة الثّالثة: عاليهم ثيابٌ خضرٌ مِن سُندسٍ ومِن إستبرقٍ، فعلى هذا يكون الإستبرقُ أيضًا أخضرَ.

والمعنى على القراءة الرّابعة: عاليهم ثيابُ سُندُسٍ خُضرٍ، وإستبرَقٌ؛ أي: وثيابُ إستبرق، أيضًا على حذف المضاف[1].

نكتة الجمع بين السُّندس والإستبرق:

الـرَّفـيـع منه كالقمصان ممّا يـلي الأبـدان، والـغـليظ على الـظّـاهـر ولـه البريق واللّمعان

جمع بين السندس والاستبرق في قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ﴾؛ إذ إنَّ هذا لباس الأبرار، وكأنَّهم يلبسون عدَّة مِن الثِّياب فيكون الذي يعلوها أفضلَها؛ ولهذا قال: ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾"[2]؛ "أي: قد جلَّلتهم ثياب السُّندس والإستبرق الأخضران اللَّذان هما أجلُّ أنواع الحرير"[3]، "يلبسون هذا وذاك جمعًا بين محاسن كليهما، وهي أفخر لباس الملوك وأهل الثَّروة"[4]؛ فيكون السُّندس شعارًا، ويكون الإستبرق دثارًا[5].

معنى (الواو) ودلالتها في ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾، ونكتة مجيء الفعل ماضيًا مبنيًّا للمفعول:

ما أبهى الجمع بين زينة الأبدان والمباسِم، مع زينة الأيدي والمعاصِم

الواو عاطفة، وجملة ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾ عطف على ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾[6]، "وساغ عطف الماضي على المضارع؛ لأنَّه

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 262، والواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 55 - 56، والشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 457 - 458.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 755.

(3) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 902.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 399.

(5) الشِّربينيُّ، السِّراج المنير: 4/ 457، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1371.

(6) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 272، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 75، وبهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 283.

مستقبَل المعنى، وللإيذان بتحقيقه[1]. فصيغة المُضيّ في ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ للدَّلالة على تحقُّق وقوعه[2]؛ إذ "هو ماضٍ لفظًا ومستقبَلٌ معنًى؛ أي: ويُحَلَّون. وفيه تعظيم لهم بالنِّسبة إلى أن يقال: وتَحَلَّوْا"[3]، ولأنَّ الحلية مقدَّمة على الطَّواف المتجدِّد المشار إليه بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ﴾، فالحلية ماضٍ بالنِّسبة إلى الطَّواف، وإنْ كانا مستقبَلَيْن في نفس الأمر، غير أنَّه أُخِّر ذِكر الحلية عن الطَّواف؛ لأنَّ الطَّواف طواف الوِلْدان بأكواب وأباريق، فناسَبَ ذِكرُه عقيب قوله: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾[4].

وبُنِي الفعل ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ للمفعول للعِلم بالفاعل؛ إذ المعنى: وحلّاهم ربُّهم أساورَ[5]، وأيضًا للاختصار في اللَّفظ، وللدَّلالة "على تيسُّر ذلك لهم، وسهولته عليهم، فقوله: ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾؛ أي: وُجِدَت تحلية المخدومين والخَدَم ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وإنْ كانت تتفاوَتُ بتفاوُتِ الرُّتب"[6].

دلالة التَّعبير بالمفعول به جمعَ تكسير: ﴿أَسَاوِرَ﴾:

قوله تعالى: "﴿أَسَاوِرَ﴾: جمع كثرة، ولم يقل: (أسورة) التي تدلُّ على جمع القِلَّة"[7]. وقد "كان في الزَّمن القديم إذا مَلَكَ مَلِكٌ أقاليمَ عظيمةً كثيرةً لبس سوارًا، وسُمِّي المَلِك المُسَوَّر لاتِّساع مملكته وعظمتها وكثرة أقاليمها، وإن لم تجمع أقاليم لم يُسَوَّر، فما ظنُّك بمَن أُعطيَ مِن ذلك جمع الكثرة، وهي بالغة مِن الأعضاء ما يبلغ التَّحجيل في الوضوء كما قال ﷺ: "تبلغ الحلية مِن المؤمن حيث يبلغ الوضوء"[8].

الأساور كثيرةٌ لا محصيَّة، حليةُ ما عملته الأيدي الزَّكيَّة

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 325.
(2) الصّاويُّ، حاشية على تفسير الجلالين: 4/ 277، والقنَّوجيُّ، فتح البيان: 14/ 476، والدُّرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 10/ 361.
(3) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 275.
(4) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 493.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 113.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 149.
(7) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 12/ 219.
(8) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 150.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها في ﴿مِن فِضَّةٍ﴾:

يُحلَّى الأبرار بالفضَّة والعسجد المسبوك، كما هو شأن الملوك

﴿مِن﴾ في قوله ﷻ: ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ بيانيَّة[1]، فهذا "بيان لما يتزيَّنون به في أيديهم؛ أي أنَّ هؤلاء الأبرار يلبسون في أيديهم أساور مِن فِضَّة، كما هو الشَّأن بالنِّسبة للملوك في الدُّنيا، ومنه ما ورد في الحديث مِن ذكر سوارَي كِسرى"[2] ومعنى ابتداء الغاية فيها ملحوظ؛ إذ إنَّ هذه الأساور التي يتحلَّى بها الأبرار كانت فِضَّةُ الجنَّة ابتداءَ اتِّخاذها وخَلْقها.

توجيه متشابه النَّظم:

حُليُّ الأبرار مِن المعدنيْن، ولكلٍّ منهم ما تقرُّ به العيْن

قال الله تعالى في سورة الكهف: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: 31]، وقال سبحانه في سورتَي الحجّ وفاطر: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحجّ: 23]، فكيف جعل تلك الأساور هاهنا مِن فِضَّة؟.

والجواب: مِن خمسة أوجه[3]؛ **أحدُها**: أنَّه لا منافاة بين الأمريْن، فلعلَّهم يُسَوَّرون بالجنسيْن، إمّا على المعاقبة في الأوقات: فتارةً يلبسون الذَّهب، وتارةً يلبسون الفِضَّة، وأخرى لؤلؤًا، وإمّا على الجمع، فيجمعون في أيديهم سوارَ الذَّهب وسوار الفِضَّة وسوارَ اللُّؤلؤ، كما تفعل النِّساء في الدُّنيا، وما أحسنَه! وإمّا على تبعيض السّوار بأنْ يكون بعضُه ذهبًا وبعضُه فِضَّة وبعضُه لؤلؤًا. **وثانيها**: أنْ يُعطَى كلُّ واحدٍ منهم ما ترغب فيه نفسُه ويميلُ إليه طَبعُه، فإنَّ الطِّباع مختلفةٌ، فرُبَّ إنسان يكون استحسانُه لبياض الفِضَّة فوقَ استحسانِه لصُفرة الذَّهب، فالله تعالى يعطي كلَّ أحدٍ ما تكون رغبتُه فيه أتمَّ، وميلُه إليه أشدَّ. **وثالثُها**: أنَّ هذه الأسورة مِن

(1) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 160.
(2) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 225.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 674، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 755، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 147.

الفِضَّة إنَّما تكون للوِلدان الذين هم الخَدَم، وأسورةُ الذَّهب للنّاس. **ورابعُها**: أنْ يكون حليُّ أهلِ الجنَّة يختلف بحسب اختلاف أعمالهم، فلعلَّه تعالى يُفيض عليهم جزاءً لما عَملوه بأيديهم حُليًّا وأنوارًا تتفاوت تفاوُتَ الذَّهب والفِضَّة، فللمقرَّبين الذَّهب، وللأبرار الفِضَّة، وعليه فقوله تعالى هنا: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ يكون هذا صفةَ الأبرار، وأمّا المقرَّبون فكما قال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحج: 23]. **وخامسها** – وهو عكس السّابق – "أنَّ الذَّهَب إنَّما يفضُل الفِضَّة في الدُّنيا لكثرة الفِضَّة وعِزَّة الذَّهَب، وهذا التَّفاوُت لا يوجَد في الجنَّة، وإنَّما المقصودُ عينُ الزّينةِ، والزّينةُ توجَد فيهما جَميعًا"[1]، فأخبر بعض الآيات عن ذا تارةً، وأخبر بعضها عن ذاك أخرى.

فإن قيل: فلم اقتصر – في هذه السّورة – مِن آنيتهم وحليتهم على الفِضَّة دون الذَّهب ومعلوم أنَّ الجِنان جَنَّتانِ مِن فِضَّة: آنيتُهما، وحِلْيَتُهما، وما فيهما، وجَنَّتانِ مِن ذهبٍ: آنيتُهما، وحِلْيَتُهما، وما فيهما؟ قيل: سياق هذه الآيات إنَّما هو في وصف الأبرار ونعيمهم مفصَّلًا دون تفصيل جزاء المقرَّبين، فإنَّه سبحانه إنَّما أشار إليه إشارةً تنبِّه على ما سكت عنه، وهو أنَّ شراب الأبرار يُمزَج مِن شرابهم.

فالسّورة مسوقة بصفة الأبرار وجزائهم على التَّفصيل وذلك والله أعلم لأنَّهم أعمُّ مِن المقرَّبين وأكثرُ منهم؛ ولهذا يخبر سبحانه عنهم بأنَّهم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الواقعة: 39 - 40]، وعن المقرَّبين السّابقين بأنَّهم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة: 13 - 14]. وأيضًا فإنَّ في ذكر جزاء الأبرار تنبيهًا على أنَّ جزاء المقرَّبين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر، وأيضًا فإنَّه سبحانه ذكر أهلَ الكُفر وأهلَ الشُّكر، وأهلُ الشُّكر نوعانِ: أبرارٌ أهلُ يمينٍ، ومقرَّبون سابقون. وكلُّ مُقرَّب سابقٌ فهو مِن الأبرار ولا ينعكس، فاسْمُ الأبرار والمقرَّبين كاسم الإسلام والإيمان: أحدُهما أعمُّ مِن الآخَر[2].

لطيفة في الرَّدِّ على استشكال كون الرِّجال في الجنَّة مُحَلَّيْن بما هو في العادة للنِّساء:

كون هذه الحُليّ "لا تليق بالرِّجال، وإنَّما تليق بالنِّساء والوِلْدان، فأجيبَ بأنَّ ذلك ممّا

(1) السَّمعانيُّ، تفسير القرآن: 6/ 121.

(2) ابن تيمية، دقائق التفسير: 3/ 24.

يختلِفُ باختلاف العادات والطَّبائع، ونشأةُ الآخِرة غيرُ هذه النَّشأة، ومِن المُشاهَد في الدُّنيا أنَّ بعضَ مُلوكِها يَتَحَلَّوْن بأعضادهم، وعلى تيجانهم، وعلى صدورهم ببعض أنواع الحُليّ ممّا هو عند بعض الطِّباع أوْلَى بالنِّساء وللصِّبيان، ولا يرَوْن ذلك بدعًا ولا نقصًا؛ كلُّ ذلك لمكان الإلْف والعادة، فلا يبعد أن يكون مِن طباع أهل الجنَّة في الجنَّة الميْلُ إلى الحُليّ مطلقًا لا سيَّما وهُم جُرْدٌ مُرْدٌ أبناءُ ثلاثين"[1].

ليست نشأة الأولى كالآخرة ولا تدانيها، فتلك جليلة ومختلفة بكلّ ما فيها

معنى (الواو) ودلالتها في ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾:

الواو عاطفة[2]، وجملة (سَقاهُمْ) معطوفة على جملة ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾[3]. وقد حسَّن الوصلَ بين الجملتين كونُهما فعليَّتَيْن، فعلاهما ماضيَيْن، جاءتا لبيان ما أعدَّه الله تعالى لعباده الأبرار في الجنَّة، حيث "ذكر سبحانه لونَ ملابس الأبرار، وأنَّها ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾، وذكر حِليَتَهم، وأنَّها أساور مِن فِضَّة، فهذه زينة ظواهرهم، ثمَّ ذكر زينةَ بواطِنهم وهو الشَّراب الطَّهور"[4]؛ أي: أنَّه "لمّا ذكر تعالى زينة الظّاهر بالحرير والحُليّ قال بعده: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾؛ أي: طهَّر بواطنَهم مِن الحَسَد والحقد والغلّ والأذى وسائر الأخلاق الرَّديَّة"[5].

ذَكَر زينة الباطن والظّاهر، فتُشرق الوجوه بسرور السَّرائر

دلالة التَّعبير بالماضي، وسرُّ المغايرة بين البناء للمفعول: ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾، وللفاعل: ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾ "ماضي اللَّفظ مستقبَل المعنى؛ إشعارًا بتحقُّقه ووقوعه[6]، "وأضافه الله إلى نفسه تشريفًا له وتخصيصًا[7]؛

أُسنِد السَّقي هنا لله؛ إشعارًا بتفضيل هذا الشَّراب على ما سواه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 181.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 284.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 325، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 191.
(4) ابن تيمية، دقائق التَّفسير: 3/ 24.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 293.
(6) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 502.
(7) أبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 15/ 154.

"فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وذلك يدلُّ على فضلٍ في هذا دون غيره[1]، وعلى أنَّه نوع آخَر يفوقُ على النَّوعيْن المتقدِّمَيْن، وهما ما مُزِج بالكافور وما مُزِج بالزَّنجبيل؛ ولذلك أُسنِد سقيُه إلى الله ﷻ، ووَصَفه بالطُّهوريَّة[2] فبناؤه للفاعل كان "بيانًا لفضل ما يُسقَوْنه في نفسه وفي كونه مِن عند الإله الأعظم المتَّصف بغاية الإحسان على صفةٍ مِن العَظَمة تليق بإحسانه سبحانه"[3]، "وإظهارًا لكرامتهم؛ أي: أمَرَ هو بسقْيِهم كما يقال: أطعَمَهم ربُّ الدّار وسقاهم"[4].

أمّا بناء الفعل (حُلّوا) للمفعول فقد سبق أنَّه للعِلم بالفاعل اختصارًا في اللَّفظ، وللدَّلالة على تيسُّر ذلك لهم، وسهولته عليهم، ولأنَّ الحلية ثابتة غالبًا، بخلاف السَّقي المتجدِّد مرَّة بعد مرَّة.

نكتة التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة ﴿رَبُّهُمْ﴾:

مِن أجلِّ أنواع النَّعيم تناوُل الشَّراب مِن لدُن البَرِّ الرَّحيم

لمّا كان السِّياقُ سياقَ تعداد ما أنعم الله تعالى به على عباده الأبرار في الجنَّة؛ ناسب أن يعبَّر "بصفة الإحسان تأكيدًا لذلك فقال: ﴿رَبُّهُمْ﴾؛ أي: الموجِد لهم، المحسِن إليهم، المدبِّر لمصالحهم"[5] فالتَّعبير بالرُّبوبيَّة في قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ "هو إشارة إلى عِظَم ما يساق إلى هؤلاء الأبرار مِن نعيم، حيث يتناولون هذا الشَّراب الطَّهور مِن ربِّهم، بعد أن يكونوا قد تذوَّقوا ألوان النَّعيم الأُخرى.. فكان هذا الشَّرابُ مِن البَرِّ الرَّحيم هو النَّشوةَ الكبرى التي لا يحيط بها وصف، ولا يَعرِفُ كُنهَها إلّا مَن أكرمه الله بها"[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 756.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 272، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 75، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 275.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 150.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 400.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 150.
(6) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1372.

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿رَبُّهُمْ﴾:

الإضافة في ﴿رَبُّهُمْ﴾ إضافة محضة، أفادت تشريف المضاف إليه وتفخيمه مِن حيث إضافته إلى الرَّبِّ العليِّ الأجلِّ الأعظم سبحانه وبحمده.

الغرض من تنكير ﴿شَرَابًا﴾:

شتّان ما بين الشَّرابَيْن والآنيتَيْن والمنزلتَيْن

التنكير في ﴿شَرَابًا﴾ للتَّعظيم والتَّفخيم؛ "أي ليس هو كشراب الدُّنيا سواء كان مِن الخمر أو مِن الماء أو مِن غيرهما، بل هو بالغ الطَّهارة والوصف بالشَّرابيَّة مِن العذوبة، واللَّذَّة واللَّطافة، وهو مع ذلك آلة للتَّطهير البالغ"[1] وقد يدلُّ تنكير ﴿شَرَابًا﴾ على النَّوعيَّة، مِن حيث إنَّ هذا الشَّراب هو نوع مغاير للنَّوعيْن السّابقيْن: الممزوج بالكافور، والممزوج بالزَّنجبيل[2]؛ أي: "ويشربون مِن شرابٍ آخَر غير ما ذُكر، موصوفٍ بغاية الطُّهر والنَّقاء، إمّا لإذهاب آثار الطعام وجعله يتفصَّد مِن الجسد عرقًا، أو للتَّرفُّع عن اللَّذّات الحِسّيَّة والتَّخلُّص مِن مفاسد الأخلاق الرَّديئة، كالحسد والحقد والبغض وغير ذلك"[3].

دلالة وصف الشَّراب بصيغة المبالَغة ﴿طَهُورًا﴾:

شرابٌ فخيمٌ بلغَ في العذوبة الغاية، وفي الطَّهارة النِّهاية

وُصِف الشَّراب الذي يُسقاه الأبرار بالطَّهور تفخيمًا له، "وإشعارًا بأنَّ هذا الشَّراب قد بلغ النِّهاية في الطَّهارة"[4]، "واحتراسًا ممّا يوهمه شربُهم مِن الكأس الممزوجة بالكافور والزَّنجبيل مِن أن يكون فيها ما في أمثالها المعروفة في الدُّنيا ومِن الغَوْل وسوء القول والهذيان، فعُبِّر عن ذلك بكون شرابهم ﴿طَهُورًا﴾ بصيغة المبالغة في الطَّهارة، وهي النَّزاهة مِن الخبائث؛ أي: منزَّهًا عمّا في غيره

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 150.
(2) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 494.
(3) الزُّحيليُّ التَّفسير المنير: 29/ 301.
(4) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 225.

مِن الخباثة والفساد"[1]، "فالشَّراب الطَّهور هو الطّاهر في نفسه المطهِّر لغيره. فالشَّراب يكون طَهورًا في الجنَّة - وإنْ لم يحصل به التَّطهير - لأنَّ الجنَّة لا يحتاج فيها إلى التَّطهير، ولكنَّه سبحانه لمّا ذكر الشَّراب - وهو اليوم في الشّاهد نجس - أخبر أنَّ ذلك الشَّراب غدًا طاهر"[2]، "فالآية ممّا يستروح بها في نجاسة الخمر؛ لِما فيها مِن التَّعريض بها"[3]، فبمفهوم المخالَفَة يُستَنبَطُ "أنَّ شَراب خمر الدُّنيا ليس طهورًا"[4]، بخلاف خمر الجنَّة البالغ الطُّهوريَّة، بل إنَّه يطهِّر شارِبَه عن دَنَسِ الميل إلى اللَّذّات الحسيَّة والرُّكون إلى ما سوى الحقِّ، فيتجرَّد لمطالعة جماله ملتذًّا بلقائه، باقيًا ببقائه، وبه تحصل الصَّفوة المهيّئة لانعكاس نور الجمال الإلهيّ في قلوبهم، وهي الغايةُ القاصيةُ ومنتهى درجات الصِّدّيقين؛ ولذلك خُتِم بها مقالةُ ثواب الأبرار[5].

شـراب الجنَّـة طاهِرٌ لم تدنُسه الأقـدام، مطهّرٌ مِـن الآفـات والآثام

توجيه المراد بقوله تعالى: ﴿طَهُورًا﴾:

في معنى الطَّهور هنا قولان[6]: **الأوَّل**: المبالغة في كونه طاهرًا، ثمَّ فيه على هذا التَّفسير احتمالات؛ أحدُها: أنَّه لا يكون نجسًا كخمر الدُّنيا، وثانيها: المبالغة في البُعد عن الأمور المستقذَرَة؛ يعني: ما مسَّته الأيدي القذرة، وما داسته الأقدامُ الدَّنسة، وثالثها: أنَّها لا تَؤول إلى النَّجاسة؛ لأنَّها ترشح عرقًا مِن أبدانهم، له ريحٌ كريح المسك.

القول الثّاني: في الطَّهور أنَّه المطهِّر، وعلى هذا التَّفسير أيضًا في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 400.
(2) القشيريُّ، لطائف الإشارات: 3/ 666.
(3) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/ 377.
(4) الشِّنقيطيُّ، أضواء البيان: 8/ 397.
(5) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 272، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 75، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 275.
(6) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 6/ 172، والواحديُّ التَّفسير البسيط: 23/ 56 - 57، والرّازيُّ، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 275.

الآية احتمالان؛ أحدهما: قال مقاتل: هو عين ماء على باب الجنَّة، تنبع مِن ساق شجرة، مَن شَرِب منها نزع الله ما كان في قلبه مِن غِلٍّ وغشٍّ وحسد، وما كان في جوفه مِن قَذَر وأذى.

وثانيهما: قال أبو قلابة: يُؤتَوْن الطَّعامَ والشَّرابَ، فإذا كان في آخِر ذلك أتَوْا بالشَّراب الطَّهور، فيشربون، فتَطهُر بذلك بطونُهم، ويفيض عرقٌ مِن جلودهم مثلُ ريح المسك، وعلى هذيْن الوجهَيْن يكون الطَّهور مُطَهِّرًا؛ لأنَّه يُطَهِّر باطنَهم عن الأخلاق الذَّميمة، والأشياء المؤذية، "ومِن طُهره أنَّه لا يصير بولًا نَجِسًا، ولكنَّه يصير رشحًا مِن أبدانهم كرشْحِ المسك"[1].

بيان متشابه النَّظم:

"قال تعالى: ﴿*وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطّور: 24]، وفي سورة الواقعة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ [الواقعة: 17 - 18]، وفي سورة الإنسان: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾، فورد في سورة الطّور: ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ [الطور: 24] وفي السّورتين: ﴿وِلْدَانٌ﴾ والمراد في السّور الثَّلاث الخُدّام. فللسّائل أن يسأل عن الموجِب لتخصيص كلِّ آية بما ورد فيها.

ذِكـــرُ الأثَـــباع يناسبه الاتِّساع، والاكتفاءُ بالأبرار يناسبه الاقتصار

والجواب - والله أعلم - يترتَّب على تمهيد، وهو أنَّ الغُلام هو الطّارُّ الشّارب، وقيل باستصحابه هذا الاسم إلى أن يشيب، والجمع غِلمان. وأمّا الوليد فاسمٌ للمولود حين يولَد، وهو (فعيل) وهي بنيةُ مبالغة، وفائدتها هنا استحكام الصِّغَر، وجمعُه (وِلدان)، وعلى هذا لا يرادف أحدُ الاسمَيْن الآخَر. فإنْ ورَدَ أحدُهما في موضع الآخَر فعلى المجاز والتَّوسُّع، والأصل ما مُهِّد.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 113.

وإذا تقرَّر هذا فوجْهُ وُرودِ الغِلمان في سورة الطّور - والله أعلم - مناسبةُ اللَّفظ باتّساع مواقعه في أحد القولَيْن، وهي استصحابُ اسمِ الغُلوميَّة إلى المشيب، أو لاحتياج التَّوسُّع فيما يطوفون به ويستخدمون فيه بحسب أسنانهم لمَن تقدَّم مِن صِنفَي المخدومين، وهم الآباء والأبناء في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطّور: 21]، فذُكر هنا الآباء الدّاخلون الجنَّة مجازاة على أعمالهم، والأبناء مِن الذُّرّيَّة ممَّن لم يبلغ سنَّ التَّكليف، فدخل الجنَّة بغير عمل، فناسب الاتّساع، وأمّا آية الواقعة فلم يقع فيها ذِكرُ الأتْباع؛ فناسب ذلك ذِكر الوِلدان الذين لا تحتمل أسنانُهم خدمة الغِلمان، فناسب الاقتصارُ الاقتصارَ والتَّوسُّعُ التَّوسُّعَ، ووضح أنَّ العكس لا يناسب، ووصَفَ الوِلدان بقوله: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ إعلامًا بأنَّهم باقون على مقتضَى سنِّ الوليديَّة لا تتغيَّر أحوالُهم عن ذلك، وإلّا فالخلودُ الأُخرويُّ عامٌّ لهم ولغيرهم.

وجوابٌ ثانٍ: وهو أنَّه لمّا ذُكِرت الذُّرّيَّة في سورة الطّور بما كان يوهِم ذِكرهم مِن حيث دخولُهم الجنَّة بغير عمل أنَّهم فيها خُدّام لمَن اتَّبعوه؛ بيَّن قولُه تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ [الطّور: 24] أنَّ الكلَّ مِن تابعٍ ومتبوعٍ مخدومون، وقيل: ﴿لَّهُمۡ﴾ [الطور: 24] باللّام المقتضية المِلك مع كون الضَّمير في ﴿لَّهُمۡ﴾ [الطور: 24] للكُلِّ مِن متبوعٍ وتابعٍ؛ إشعارًا لأنَّهم ملكهم غلمان لهم، يتصرَّفون في كلٍّ بما يُؤمَرون به ويُنهَون عنه، ولمّا لم (يقع) في سورة الواقعة وسورة الإنسان ذِكر الأتْباع مِن الذُّرّيَّة لم يرد فيهما إلّا اسم الوِلدان، وهُم في الخدمة بمقتضى أسنانهم دون الغِلمان، وتناسَبَ هذا"[1].

دلالة حذف فِعل القول في ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ﴾؛ "أي: يقال لهم ذلك تكريمًا لهم، وإحسانًا إليهم"[2]، "وهنا محذوف يقتضيه القول"[3]؛ "فهذا الكلام مقول قول محذوف قرينته الخطاب؛ إذ ليس يصلح لهذا الخطاب ممّا تقدَّم مِن الكلام إلّا أن يكون المخاطبون هم الأبرار الموصوف نعيمُهم. والقول المحذوف يقدَّر فعلًا في موضع الحال مِن ضمير

(1) الغرناطيُّ، وملاّك التَّأويل: 2/ 453.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 293.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 414.

الغائب في ﴿وَسَقَىٰهُمْ﴾؛ نحو: يقال لهم، أو يقول لهم ربُّهم، أو يقدَّر اسمًا هو حال مِن ذلك الضَّمير؛ نحو: مقولًا لهم هذا اللَّفظ، أو قائلًا لهم هذا اللَّفظ"[1]؛ أي: "يقال لأهل الجنَّة بعد دخولهم فيها، ومشاهدتهم لنعيمها: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ قد أعدَّه الله تعالى لكم إلى هذا الوقت، فهو كلُّه لكم بأعمالكم على قلَّة أعمالكم، كما قال حاكيًا عن الملائكة إنَّهم يقولون لأهل الجنَّة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرَّعد: 24] وقال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقَّة: 24]. والغرض من ذكر هذا الكلام أن يزداد سرورُهم، فإنَّه يقال للمعاقَب: هذا بعملك الرَّديء فيزداد غمُّه وألمُ قلبِه، ويقال للمُثاب: هذا بطاعتك، فيكون ذلك تهنئةً له وزيادة في سروره"[2]، فهذا "مِن تحيَّة الله ﷻ لعباده الأبرار المكرَمين وهو يسقيهم مِن هذا الشَّراب الطَّهور.. فهم إذ يتناولون هذا الشَّراب مِن ربِّهم، يتناولونه محمَّلًا بهذه التَّحيَّة المباركة مِن المنعِم المتفضِّل عليهم؛ إذ يقال لهم: هذا جزاء ما عملتم، وهو ثمرة ما سعيتم؛ إنَّ سعيكم كان مشكورًا لكم مِن ربِّكم، وهذه التَّحيَّة مِن ربِّكم هي تحيَّة شكر وحمد لسعيكم"[3].

ويجوز "أنْ يكون ذلك إخبارًا مِن الله تعالى لعباده في الدُّنيا، فكأنَّه تعالى شرح جواب أهل الجنَّة أنَّ هذا كان في عِلمي وحُكمي جزاءً لكم يا معاشر عبادي، لكُم خلقتُها، ولأجلكم أعددتُها[4].

مِن التَّكريم أنْ يُخبَر أهل النَّعيم بعلَّة الفضل العظيم

دلالة التَّعبير بالجملة المؤكَّدة بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة:

أُكِّد جزاء الأبرار بـ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسميَّة: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ اهتمامًا بالخبر، "وتسكينًا لقلوبهم؛ لئلّا يظنّوا أنَّ ما هم فيه

ليس ثواب الجنَّة بالمقطوع فيُخشَى زوالُه، ولا بالمتكرِّر فيُخاف ملالُه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 401.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 756.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1372 - 1373.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 756.

على وجه الضِّيافة ونحوها فيظنّوا انقطاعَه"[1]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ معناه: "إنَّما هذا جزاءٌ لكم؛ أي: ثواب. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾؛ أي: عملكم ﴿مَّشْكُورًا﴾؛ أي: مِن قِبَل الله، وشكرُه للعبد قبولُ طاعتِه، وثناؤه عليه، وإثابتُه إيّاه"[2].

الغرض من التَّعبير بالمسند إليه اسم الإشارة، وبيان المشار إليه:

اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ يُشار به إلى ما وُصِف مِن نعيم الجنَّة ممّا تقدَّم مِن عطاء الله للأبرار[3]؛ أي: هذا الذي أعطيناكم مِن الكرامة كان لكم ثوابًا على ما كنتم تعملون في الدُّنيا مِن الصّالحات، جوزيتم به، وشُكِر به سعيُكم"[4] فالإشارة إلى ما يكون حاضرًا لديهم مِن ألوان النَّعيم الموصوف فيما مضى مِن الآيات. والمقصود مِن ذلك: الثَّناء عليهم بما أسلفوا مِن تقوى الله، وتكرمتهم بذلك، وتنشيط أنفسهم بأنَّ ما أنعم به عليهم هو حقٌّ لهم جزاءً على عَملِهم"[5].

الإشارة إلى ما يكون حاضرًا مِن صنوف الثَّواب، كالحِلية والطَّعام والشَّراب

معنى (اللّام) ودلالتها في ﴿لَكُمْ﴾:

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[6]. وهي بهذا المعنى هنا؛ أي أنَّ هذا الثَّواب العظيم كان جزاءً لكم خاصَّة على ما عملتموه، وما أسلفتموه في الأيّام الخالية.

الغرض من تقديم شبه الجملة على المسند في ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾:

أفاد هذا التَّقديم معنى التَّخصيص، وهو مؤكِّد لما في لام ﴿لَكُمْ﴾ مِن هذا المعنى، ففيه مزيد تكريم مِن حيث أُعلِم الأبرار

مِن الإكرام تقديمُ ضمير المكرَمين؛ شُكرًا لسعيهم مِن ربِّ العالمين

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 151.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 147.
(3) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 298، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 381.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 115، والزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 674.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 401.
(6) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 479، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 64.

أنَّ هذا الثَّواب الجزيل إنَّما هو لهم خاصَّة لا يشاركهم فيه أحد، وفيه كذلك تحسير للكافرين حيث إنَّهم لن ينالوا منه مثقال ذرَّة، كما أنَّ في تقديم ضميرهم نوع إكرام لهم؛ شُكرًا مِن الله العظيم لسعيهم.

معنى (الواو) ودلالتها في ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾، ونكتة التَّعبير بالكون الماضي:

آنَسَهم المولى بإعلامهم بأنَّ ما أغدق عليهم كان ثوابًا لهم على أعمالهم

الواو عاطفة، وجملة: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ في محلِّ رفعٍ، معطوفةٌ على جملة ﴿كَانَ﴾ الأولى"[1]، وقد حسَّن الوصل بينهما مجيئُهما اسميَّتين مصدَّرتين بالنّاسخ (كان)، ومِن بديع المناسبة أنَّه لمّا عرَّفهم بثوابهم في قوله تعالى: ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ - "عطف على ذلك قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ علاوةً على إيناسهم بأنَّ ما أغدق عليهم كان جزاءً لهم على ما فعلوا بأنَّ سعيهم الذي كان النَّعيم جزاءً عليه، هو سعيٌ مشكور"[2].

وأمّا التَّعبير بالنّاسخ (كان) فلإفادة التَّحقيق والدَّوام؛ أي: "﴿وَكَانَ﴾ على وجه الثَّبات في علم الله تعالى ﴿سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾"[3].

توجيه معنى الشُّكر مِن الله تعالى، ودلالة مجيئه بصيغة اسم المفعول ﴿مَّشْكُورًا﴾:

جزاهم الله على القليل بالكثير، وذلك هو الفضل الكبير

الشُّكر مِن الله تعالى قبول قليل العمل، والتَّجاوز عن التَّقصير فيه مع الإثابة عليه، فقوله تعالى: ﴿مَّشْكُورًا﴾؛ يعني: "حَمِدَكم عليه ربُّكم، ورضيَه لكم، فأثابكم بما أثابكم به مِن الكرامة عليه"[4]، "فإنَّه سبحانه إذا قَبِل العَمَلَ شَكَرَه، فإذا شَكَرَه أثابَ عليه بالجزيل؛

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 284، ومحمود صافي، الجدول: 15/ 191.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 401.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 151.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 115.

إذْ هو سبحانه ذو الفضل العظيم"[1] ولمّا كان المقصودُ القبولَ لأنَّ القابل الشّاكر هو المعمول له؛ بُني للمفعول قولُه: ﴿مَّشْكُورًا﴾؛ أي: لا يضيع شيئًا منه ويجازي بأكثرَ منه أضعافًا مضاعَفَة"[2].

ويجوز أن يكون ﴿مَّشْكُورًا﴾ بمعنى: مشكور ساعيه، فأسند المشكور إلى السَّعي على طريقة المجاز العقليّ؛ مثل قولهم: سَيْلٌ مُفعم. ولك أن تجعل ﴿مَّشْكُورًا﴾ مفعولًا حقيقةً عقليَّة، لكن على طريقة الحذف والإيصال؛ أي: مشكورًا عليه. وإقحام فعل (كان) كإقحام نظيره آنفًا[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المنثور والمتفرّق:

الفاء والرّاء والقاف أُصيل صحيح يدلُّ على تمييز وتزييل بين شيئين[4]. فيقال: فرَّق بين الحقِّ والباطل، ولا يقال: نثر بينهما. ويُستعمَل التَّفريق في تشتيت الشَّمل والكلمة، كما في قول الله ﷻ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: 102]. ونَثْرُ الشيء: نَشْرُه وتفريقه[5]. ويقال: نثرَ الحَبَّ والجَوْزَ والسُّكَّر، أي: رماه متفرِّقًا[6]. ويتبيَّن ممّا سبق فرقٌ دقيقٌ بين (النَّثْر) و(التَّفريق)، وهو أنَّ النَّثر مختَصٌّ بتفريق الكثير، ولا يُستعمَل في التَّفريق بين شيئين، وأنَّه دالٌّ على نَشْرِ هذا الكثير مع تفريقِه؛ ولذا أوثِر لفظُ (النَّثر) دون (التَّفريق) في قول الله ﷻ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾؛ فقوله

النَّثر مختَصٌّ بتفريق الكثير، وهو دالٌّ على نَشْرِ هذا الكثير مع تفريقِه

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 148.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 151.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 401.
(4) ابن فارس، المقاييس: (فرق).
(5) الراغب، المفردات: (نثر).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، والزبيدي، التاج: (نثر).

تعالى: ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ كناية عن كثرتِهم وانتشارِهم في الخدمة وشرفِهم وحُسنِهم(1).

التَّحلية والتَّزيين:

التَّحلية تختصُّ بالتَّزيين بما يُزيَّن به من مَصوغِ المعدنيّات أو الحجارة

استُعمِل التَّزيين في تحسين القبيح(2)، كما في قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: 48] واستُعمِل في تحسين الحَسَن لمَن لَم يكن يُدرِك حُسنَه(3)، كما في قول الله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 7]، وفي تحسين حُبٍّ ما هو زائلٌ فانٍ(4)، كما في قول الله ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: 14].

واستُعمِلَت التَّحلية مع أهلِ الجَنَّة كما في قول الله ﷻ: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحج: 23]، فدلَّ هذا على أنَّها تحليةٌ دائمة، ودلَّ على دوامِ شُعورِ المحَلَّى بحلاوةِ ما حُلّي به ودوامِ التَّنعُّم به، ودوامِ إدراك مَن حولَه حلاوةَ ما حُلّي به وجمالَه.

والزّينة: ما يُتَزيَّن به(5)، والحَلْي: ما يُزَيَّن به من مَصوغِ المعدنيّات أو الحجارة(6)؛ ولِاختصاصه بهما أوثِر لفظ (التَّحلية) دون (التَّزيين) في هذه الآيات.

وقد يكون من أسرارِ إيثارِ لفظ (التَّحلية) دون (التَّزيين) في هذه الآيات أنَّ جذرَ (التَّحلية) قريبٌ من جذرِ (التَّحليل)؛ فيكون في ذلك إشارةٌ إلى أنَّهم حُلّوا بما كان محرَّمًا على بعضهم في الدُّنيا (كالذَّهبِ المحرَّم على الرِّجال)، وبما حَرَمَ بعضُهم أنفسَهم منه؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 148.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 73.
(3) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 7/ 339.
(4) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 1/ 375.
(5) الجوهريُّ، الصِّحاح، والفيروزآباديُّ، القاموس المحيط: (زين).
(6) الفيروزآباديُّ، القاموس: (حلي).

كمَن حَرَمَ نفسَه من لبسِ شيءٍ من الفضَّةِ إيثارًا لإطعام مسكين، أو كمَن حَرَمَت نفسَها من لبسِ شيءٍ من الذَّهب أو الفضَّة إيثارًا لعملِ خيرٍ.

الأساور والقلائد:

في الأساور دلالةٌ على اتِّساع المُلك

القلائد جمع القِلادة: وهي ما جُعِل في العنق، يكون للإنسان، والفَرَس، والكَلْب، والبدنة التي تُهدَى ونحوها[1]. ويقال: قَلَّدتُ المرأةَ قِلادةً: جعلتُها في عنقِها[2].

والأساور جمع السّوار: وهو حَلْيٌ شكله أُسطوانيٌّ فارغ الوسط يلبسه النِّساء في معاصمهنَّ ولا يلبسه الرِّجال إلا الملوكَ[3].

ومعلومٌ أنَّ العادة جرَت على أنَّ المتحلّي بالقلادةِ يتقلَّد بقِلادةٍ واحدة، والمتحلّي بالسّوار يلبس أكثر مِن سوار، وكلَّما كثرت الأساور التي يلبسها، زادت الدَّلالة على التَّرف والنَّعيم؛ ولذا أوثِر لفظ (الأساور) دون (القلائد) ويضاف إلى هذا أنَّ في لفظ (أساور) دلالةً على اتِّساع المُلك؛ فقد كان في الزَّمَن القديم إذا ملَكَ ملِكٌ أقاليمَ عظيمة كثيرة لبس سوارًا.

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قلد).
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح، والفيروزآباديُّ، القاموس المحيط: (قلد).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 400.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والستون،
من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 65 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-17-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 65 : المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-17-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2525407 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"